

أسس وشروط العمل الإيجابي البناء من خلال "رسائل النور" للعلامة بديع الزمان سعيد النورسي

د.علي الصوّلي

المعهد العالي لأصول الدين / جامعة الزيتونة - تونس

تمهيد:

إنّ العمل الإيجابي لا يتحقّق إلا من خلال تفكير إيجابي اخترم في الذهن وترسّخ في الوجدان، فيسعى صاحبه إلى تجسيده في الواقع الجامد أو المتردي. وهو في حقيقة الأمر من أوكّد الواجبات والمهام التي أمرنا الله بتنفيذها لإرساء تلك القناعات الفكرية وتجسيدها قصد تغيير أوضاعنا المتردية نحو الأفضل. فلا قيمة للعلم في الفكر الإسلامي وفي العقيدة الإسلامية إلّا بتنزيله على أرض الواقع ليحدث التغيير المنشود وإلّا أصبح المسلم تحت طائلة قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٣).

والتفكير الإيجابي هو المنطلق والإطار للشروع في طريق العمل الإيجابي النافع للفرد والمجتمع، وبالتالي فإنّه نمط فكر قادر على أن يساهم في حلّ المشاكل التي يواجهها الإنسان وتقدّم البدائل الممكنة واللازمة للانتقال من حال سيء إلى آخر أفضل عبر العبارات والأسلوب الراقى. وهو ما يؤدي في مرحلة موائية إلى تحديد الأهداف المرجوة بكل وضوح وترتيبها حسب الأولوية، مع اختيار أفضل السبل لتحقيقها.

ولا شكّ أنّ هذا التفكير الإيجابي يتّسم بالمنهج العلمي - العقلاي والاجتهادي الذي حثّنا عليه ديننا الإسلامي الحنيف. ولتنزيله على أرض الواقع فهو بحاجة إلى خطة عملية لإحداث التغيير المنشود.

وقد استهلّ العلامة النورسي رسالته الجليلة الموسومة ب: "الطمات الرأفة وصفعات الرحمة" بالآية الثلاثين من سورة آل عمران التي بيّنت الحكمة الإلهية من وجود الإنسان الكائن الجامع بين العمل الصالح - الإيجابي والعمل السيئ الحائل بينه وبين رضا الله، وهو تحذير له قبل فوات فرصة وجوده في هذه الدنيا الفانية.. ولن يتحقّق ذلك إلّا باستباق فعل

الخيرات بنية خالصة خدمة للإسلام والمسلمين، وهو ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: "هلك الناس إلا العاملون وهلك العاملون إلا العاملون، وهلك العاملون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم" .. فهذا هو المنطلق وهذا هو سبيل الحق.

وقد أوضح النورسي أنّ "الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار لا بالافتقار والاختيار..".

والحاصل في نظره أنّ الإسراف ناجم عن غياب القناعة المتأتية من ضعف الإيمان والتكالب على المادة وانسداد الأفق الروحي والإنساني، وهذا السلوك يجتبه وهج التطلع إلى العمل ويجرّ الإنسان إلى الكسل والتقاعس، وبالتالي يفتح لصاحبه أبواب الشكوى والحسرة في حياته ولا ينعم بما لديه من نعم الله التي لا تحصى ولا تعد.. كما يؤدي هذا السلوك آليا إلى الرياء والحرمان من القناعة التي تفرز العزّة. ولا شك أنّ باب القناعة يفتح باب الشكر ويوصل باب الشكوى، وهو ما يرشّح الإنسان المؤمن القنوع إلى مرتبة العبد الشكور ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سورة سبأ، الآية ١٣) كما جاء في القرآن الكريم. وهذه الميزة - التي لا يتلقاها إلا من وصل إلى مرتبة الإيمان التي تؤدي في نهاية المطاف إلى باب "الإخلاص" وهي مرتبة إيمانية يحصل عليها المؤمن الصادق المخلص، حيث استثنى القرآن الكريم أصحاب هذه المرتبة بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (سورة الصافات، الآية ١٦٠).

فهذا التسلسل المنطقي الإيماني الذي رسمه صاحب "رسائل النور" نحت لنا فلسفة "العمل الإيجابي البناء" وخصائصه وميزاته وشروطه على الفرد والمجتمع.

❖ مكونات العمل الإيجابي:

يمكننا أن نختزل مفهوم العمل في الإسلام بأنه مصداق الإيمان الذي وقر في القلب، وهو في الآن نفسه معيار الثواب والعقاب الذي أشار إليه الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حيث قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (٤٠) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ (١).

والمتمثل في التعاليم الإسلامية والأثر والفكر الإسلامي عموما يتبيّن له أنّ للعمل في الإسلام مكانة عظمى ومنزلة رفيعة إلى درجة أنه قُورن بالجهاد في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ

(١) النجم: ٣٩ - ٤١.

يَصْرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاخْرُونَ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١﴾.

ومن هذا المنطلق جعل الإسلام العمل من أقدس الواجبات التي تبرهن على صدق الإيمان، فقد وردت كلمة "العمل" ومشتقاتها في القرآن الكريم نحو ثلاث مائة وستين مرة، كما وردت مائة وتسعين مرة بصيغة "الفعل"، بل اعتبر الإسلام أنّ الإجهاد من البذل والعمل من مكفّرات الخطايا والذنوب. ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام: "من أمسى كالألّا من عمل يده أمسى مغفورا له" ^(٢)، كما ذكر القرآن في قصص الأنبياء إلى أنّ العمل سنّة أنبياء الله ورسله، فبالرغم من انشغالهم بالدعوة إلى الله وتبليغ رسالته فقد كانوا يعملون كبقية البشر ويحسّون الناس على الرزق الحلال عن طريق العمل ولا ينتظرون العطايا أو الهدايا، وذلك مثل ما جاء في قوله تعالى مخاطبا الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَكْمُثُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ^(٣)، بمعنى يتبعون المعاييش في الدنيا.. كما جاء في تفسير الإمام القرطبي.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أنّ العمل يمنح الإنسان شعورا بالثقة وإحساسا بالقدرة على الإبداع والابتكار كما يمنحه أيضا مكانة اجتماعية محترمة.

بل أكثر من ذلك، فإنّ العمل يضفي معنى وغاية لحياته ويجرّره من الشعور السلبي بالعدمية واللامعنى. فالعمل يعطي للإنسان إحساسا بقدرته على صنع مصيره والمشاركة في نخته بالإنجازات التي يحقّقها عبر العمل وبالتالي فإنّ العلاقة وطيدة بل جدلية بين النشاط الروحي والنشاط الجسدي الذي يمثّله العمل في طلب الرزق، قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ^(٤). والآيات القرآنية وكذلك الأحاديث النبوية التي حتّت على عمارة الأرض بالعمل والكد فهي كثيرة تأكيداً على قيمة العمل في المنظور الإسلامي. كما يوفّر العمل إشباع الحاجات المادية للإنسان، فإنّه يوفّر أيضا إشباع الحاجات النفسية كالحاجة إلى الاحترام وإثبات الذات في المجتمع والحاجة إلى الاطمئنان النفسي الذي يحقّق توازن الإنسان ويصنع الإرادة القوية وتحديّ المضاعب ويحفظ

(١) المزمل: ٢٠.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) الجمعة: ١٠.

له كرامته وبيعه عن ذلّ السؤال.. فكلّ عمل هو عنوان شرف وتقدير ما لم يكن محرّمًا في الشريعة شكلا ومضمونا وأسلوبا..

إنّ كلّ عمل إيجابي لن يترسّخ في عقلية الفرد والمجتمع إلّا بعد تحصينه بمجموعة من المكونات تضمن الإنجاز المرجو، كما تضمن له الاستمرارية والترقي. ولعلّ أبرز مكوّن ضروري وموجّه لبقية المكونات هو التفكير الإيجابي الذي يسبق مسار العمل الإيجابي ويهيئ له الأرضية الضرورية للنجاح، لأنّ الكثير يهرعون إلى إنجاز عمل ما دون أن يؤطّره فكر طموح وثاقب يوازي بين التخطيط السليم وغرس الشحنة النفسية القادرة على إعطاء الفرد والمجموعة الشجاعة لمواجهة المشكلات الطارئة واتخاذ القرارات الحازمة والتأقلم مع التغييرات التي قد تحدث من حين إلى آخر.

ولكن هناك مكوّنًا ضروريا لا يمكن فصله عن المكون الأول، بل يعتبر الموجه والمحرك لبقية المكونات التي تصنع العمل الإيجابي ألا وهو الحرص على غرس ما يعرف بـ: "أخلاقيات العمل"، وبالتالي تأصيل الالتزام الأخلاقي باعتباره أهم هدف استراتيجي يحقّق استمرارية نجاحه.. فغرس القيم الإيجابية في العمل يضمن المحافظة على مبادئ العمل الإيجابي كالإخلاص والعمل والمعاملة الإنسانية للعاملين المنتجين في الحقول المهنية أو الفكرية أو المعنوية، وكذلك التحكم في النفس والأمانة وتحمل المسؤولية المنوطة بعهدة كل فرد أو مجموعة، إضافة إلى الحرص على إبراز العمل الجماعي وروح التعاون، والتقوى التي تضمن المراقبة الذاتية سواء للعمّال أو الموظّفين أو الإطارات المكلفّة بمهمة ما..

فكلّ هذه العوامل من شأنها أن تساعد على إنشاء بيئة سليمة للعمل الإيجابي القادر على الإنتاج والإنتاجية بشكل راق تصاعدي قادر على تحقيق المنافسة والتطور.

وإذا ما تأملنا في شريعتنا السمحاء وتراثنا الأخلاقي الأصيل سوف ندرك أنّ هذه القيم وهذه المكونات نصّت عليها مقاصد الشريعة الإسلامية، وما علينا إلّا أن نفعّلها ونلتزم بها قبل أن نبهر بقيم غيرنا أو نستمد نظريات أخلاقية من بيئات أخرى أفرزتها ظروف حضارية أو مصلحة مؤقتة أو معاملات قسرية أملتتها سياسات قهرية سرعان ما تنهار وتلاشى بمجرد تغيير تلك السياسات أو القناعات أو الظروف التي حقّت بها، بخلاف ما نجد في القيم الإسلامية التي تقنع العقل وتستجيب لحاجات الروح..

وبالتالي يمكن القول أنّ تلك المكوّنات المستمدة من قيمنا هي أكبر ضامن لنجاح أي عمل، وذلك من خلال القدوة الحسنة المتمسكة بأخلاقيات العمل الإيجابي، و يصبح كل فرد أو مسؤول عن مجموعة قدوة حسنة يؤثّر بصورة جدلية تفاعلية في أوساط المجتمع من خلال تطبيقه لتلك القيم المساعدة على بناء بيئة عمل إيجابية وفعّالة قادرة على تحدي الصعوبات وتحقيق النجاحات في ظلّ المتغيرات الأخلاقية التي نعيشها اليوم.

وقد بيّنت العديد من الأمثلة قديما وحديثا أنّ للقدوة الملتزمة بهذه القيم وبهذا التماشي دور كبير ومؤثر في تحسين وتطوير الأداء في العمل مهما كان صنفه. وهذا المكوّن الرئيسي أشار إليه القرآن الكريم حينما أمرنا أن نتخذ الرسول ﷺ المثل الأعلى والأسوة الحسنة باتّباع سنّته الشريفة في كلّ الأمور واقتفاء نهجه في أيّ عمل نقوم به، تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١).

ولا شك أنّ الواقع والدراسات العلمية دلّت على أنّ نمط التفكير الإيجابي المتّجه نحو هذا المنحنى والمدرك لقيمة هذا المسلك وما سيفرزه من عمل إيجابي، على أنّ الناجحين في أعمالهم هم الذين يفكرون بطريقة إيجابية، وأنّ من يفكرون بطريقة سلبية هم الفاشلون الذين يتخبّطون في مشاكل تزيد أوضاعهم سوءًا وتخلّفًا وتعقيدًا وبالتالي يصبحون غير قادرين على تأسيس مستقبل زاهر لهم ولحيّتهم ولا يهيئون أرضية إيجابية للأجيال القادمة، ذلك أنّ الفشل والنجاح يتبعان آليا نمط التفكير والأخلاق المؤسسة لنشاطهم وأعمالهم. وعليه فإنّ الشخص الطامح للنجاح في عمله - مهما كانت مهامه ونوع نشاطه أو اختصاصه يجب عليه أن يبعد عن ذهنه أية أفكار سلبية وفي الآن نفسه يقوم بتجنب الأشخاص السلبيين الذين يفكرون بطريقة سلبية تزيد من تعقيد الأمور وتتوقّف لأبسط الصعوبات، وبالتالي يحصل العجز ولا يقع الاهتمام والالتفات إلى القدرات ومواطن القوّة التي يتمتّع الفرد أو المجموعة التي يعمل معها، وفي المقابل نركّز على ضعفنا معتقدين أنّه حتمي، وما يحصل هو التركيز على الوجه المظلم للأشياء والعجز عن رؤية الجانب المشرق منها.

وقد نبّه العلامة "بديع الزمان سعيد النورسي" إلى هذا الأمر الخطير في "الدرس الأخير" قبل وفاته رحمه الله، حول "العمل الإيجابي البناء" بقوله: "إنّ وظيفتنا هي العمل

(١) الأحزاب: ٢١.

الإيجابي البناء وليس السعي للعمل السلبي الهدّام، والقيام بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرضا الإلهي..^(١)، مذكّرا بأنّ المسلم مكلف بالصبر الجميل وأن يكون دائما عبدا شكورا مهما كانت الصعاب وأنواع الابتلاء والمشقة التي تعترضه

في مسيرة حياته، ديدنه في ذلك القيام بما سمّاه بـ"الخدمة الإيمانية البناءة" التي ستثمر أجلا أم عاجلا الأمن والتأخي والاستقرار وتجنّب الفتن التي يستغلّها ويوظّفها أعداء الإسلام والمسلمين في بثّ الفرقة والدمار والضعف..

في هذا السياق الفكري أوصى الأستاذ العلامة النورسي بتجنّب الهجوم على المخطئين في حق الإسلام من المسلمين الذي نعته بـ "المخطئين المساكين" حيث يجب معاملتهم طبق مكوّنات ومبادئ العمل الإيجابي بالمعاملة اللطيفة ومحاولة إقناعهم تدريجيا بالحسنى لإرجاعهم إلى الصواب، بل يذهب أكثر من ذلك باستعماله مصطلحا جديدا يعبر عن بعد نظر وعمق في التحليل وهو مصطلح "الجهاد المعنوي" .. وهو كما عرفه "العمل ضد التخريب المعنوي، وإنّه ليس ماديا قط، وإنّما يستوجب القيام بخدمات معنوية من شأنها أن تليّن القلوب وتستدرجها لفهم مقاصد الإسلام ومبادئه السامية.

فالمعاملة اللينة والأخلاق الإسلامية التي أوصت بها شريعتنا السمحاء هي مفتاح التواصل مع الآخرين وإقناعهم، وهو ركن أساسي من أركان العقيدة الإسلامية نظرا لكونه ضرورة إنسانية لبناء أرضية التعاون في البرّ والتقوى، وهي بالتالي جوهر الإسلام وروحه التي طبعت جميع جوانبه.

من هذا المنطلق اهتمّ الإسلام أيضا بأخلاق العمل حتّى يشمر خيرا وبركة للجميع، وذلك من خلال القيم والمبادئ التي شرّعها وأمر بتجسيدها على أرض الواقع أثناء أداء أيّ عمل من الأعمال التي تحقّق الكسب الحلال. كما حرص ديننا الحنيف على حفظ حقوق العامل أو الموظّف لضمان تحقيق العدل بين كلّ الأطراف المعنية بذلك العمل، مع التزام الجميع بتلك القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام والتي يمكن تلخيصها في الأمانة والإخلاص المتأتيان من الإيمان الخالص والتقوى.

(١) بديع الزمان النورسي، السيرة الذاتية، الباب الثاني، الطبعة الثانية ٢٠١١، ص ٥٠٥.

❖ شروط العمل الإيجابي وركائزه:

إذا أراد الفرد أو المجموعة تحقيق ما يعرف بلغة العصر بالتقدم ويطمح إلى التميّز، فلا بدّ أن يتقن العمل المنوط بعهدته، وهو ما اصطلح عليه الشرع بـ "الإحسان" عموماً - ولو أنّ هناك علاقة وطيدة بينه وبين الإتقان - بل إنّ البعض اعتبر "الإحسان" أشمل دلالة من "الإتقان" لأنّ هذا الأخير - أي الإتقان - هو عمل يتعلّق بالمهارات التي يكتسبها الإنسان بالتعلّم والخبرة في تقنية أو اختصاص معيّن، بينما الإحسان هو في حقيقة الأمر تربية راقية ناجمة عن وعي عميق ومجاهدة وقناعة إيمانية راسخة نتيجة المرور بمقامات "الإسلام" للوصول إلى مرتبة "الإيمان" .. وقد حرص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على بلوغ هذه الدرجة الرفيعة. ومن هذا المفهوم يصبح الإحسان مرادفاً للمراقبة الصارمة والمستمرة، وبالتالي هو إحساس ووعي كبير بقيمة العمل وكذلك شرعته لإدراجه في أفضل العبادات وأرقى سلوكيات المسلم باعتبار أنّ هذه المرتبة - أي الإحسان - هي دعوة وطموح لتربية المسلم على عادة الإتقان في أيّ عمل أو معاملة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾^(١) بمعنى أيكم أفضل وأتقن وأجود عملاً. ولا شك أنّ المقصود به هو العمل الصالح وإتقانه.

كما أخبرنا نبيّ الإسلام عليه أفضل السلام بـ "أنّ الله كتب الإحسان على كل شيء" أي فرضه علينا، وبالتالي فإنّ الإحسان - أي الإتقان - يكون بالمنظور الإسلامي قيمة إسلامية كبرى ثابتة لأنّ العبرة في الآخرة هي بقيمة الأعمال ووزنها لا بكثرتها، ومن هنا يصبح الإتقان من أرقى السلوكيات المطلوبة التي يجب أن تلازم المسلم في كل أعماله اليومية.. وإذا كان ذلك كذلك فإنّ الإتقان سوف يؤدي إلى "الإخلاص" في العمل ويغرس في النفس "تقوى المراقبة الداخلية" ويجرّر العمل من كل مظاهر الرياء والنفاق والطمع الزائل، ويرتقي إلى بعد أخروي يتجاوز الآني وينعكس على ثمراته على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة.. تلك هي فلسفة "العمل الإيجابي" الذي أرسّتها التعاليم الإسلامية التي أمرت كل مسلم بأن يجتهد في الواقع مع نفسه ومع الآخرين حتى يصبح "الإخلاص" سمة وصفة تطبع شخصية المسلم في كل عمل سواء كان تعبدياً- طقسياً أو سلوكياً - اجتماعياً أو

(١) الملك: ٢.

معاشيا - اقتصاديا بنيت العباداة حتى يقبل عند الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

- الإيمان نور وقوة:

في تحليل مقارن بين العلامة بديع الزمان سعيد النورسي أنّ الكفر ظلام يؤدي إلى العدم والمجهول، في حين أنّ الإيمان نور يسمو بنوره الإنسان "إلى أعلى عليين، فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل سافلين، فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم"^(٢).

لذا تميّز "النورسي" بفكر عميق وبعد نظر واسع الآفاق، غير متنطّع، وهو ما جعل فكره الإصلاحية يتمحور حول المجال التربوي أي تربية الجماعة من خلال تربية الفرد التي أساسها "الإيمان" حتى يكون الإنسان إيجابيا واضح المعالم متفائلا ومؤمنًا أشدّ الإيمان بما جاء في الوحي الذي أثار له معالم الطريق من خلال البشائر والنذر، وهو ما يدفع الإنسان المؤمن إلى العيش في حركية فكرية ونفسية وجسدية بناءة ومتوازنة تؤهله للعطاء الدائم والترقي نحو الأفضل بنماء القدرات الإبداعية في العمل عبر الفكر والممارسة وذلك من خلال حركية مستمرة لا تنقطع، رافعا شعار القرآني الجليل "واستبقوا الخيرات". فالعمل بهذا المفهوم الإيماني هو عطاء ثمّ بناء ثمّ تراكم وتنافس في الخيرات، بعيدا عن كلّ فكر سلبى.

لذا اعتبر العلامة النورسي أنّ كل عمل إيجابي بناء هو نتيجة التربية الإيمانية الصحيحة التي ترتقي بالإنسان إلى أعلى المراتب في الدنيا والآخرة، وهي حقيقة يذكرنا القرآن الكريم بها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ (وهم الذين بعدوا عن الإيمان)، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٦﴾﴾ (ثم استثنى الله تعالى فئة المؤمنين الصادقين الذين ترجموا ذلك الإيمان إلى أفعال وأعمال صالحة أهلتهم للفوز بجنة الخلد) ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾^(٣).

فبالإيمان يكسب الإنسان "قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهر

(١) الأنعام: ١٦٢-٣٦٣.

(٢) كتاب الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون.

(٣) التين: ٤ - ٦.

آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده"^(١). وفي المقابل فإنّ الكفر "يقطع تلك النسبة وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها"^(٢)، فتتضاءل قيمة الإنسان وتنحصر نظرتة ووعيه وعمله في أفق ضيّق لا يتجاوز المادة الفانية، بل - كما أشار رحمه الله في "نوى الحقائق"^(٣) أنّ "الذين يبحثون عن كلّ شيء في المادة، عقولهم في عيونهم، والعين لا تبصر المعنويات"^(٤). موضّحاً أنّ قيمة المادة لا يعتدّ بها فهي في حكم المعدوم لكونها فانية، زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة.."^(٥).

فالنور الإيماني هو انتساب إلى الصانع سبحانه وتعالى الذي يقوم بإظهار جميع آثار صنعته الكامنة في الإنسان.. وقد وصفه الإمام النورسي بـ"القوة" بل هو الذي يعطي أعظم قوة للإنسان المؤمن وأكبر دفع معنوي وروحي يحزّره من الضعف والتردد والغموض في الرؤية والمواقف، إلى جانب الحصانة الكاملة التي تمنحه كمال الأمان والسلام.

والإنسان الذي يمتلك الإيمان الحقيقي الذي لا لبس فيه يصبح قادراً على تحدي الصعاب والعراقيل وأنواع الابتلاء الداخلي والخارجي "فيحرق متفرّجاً على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية.. قائلاً بكلّ ثقة وإيمان قوي: "توكّلت على الله. بعد الأخذ ما في وسعه من الأسباب الممكنة - ويسلمّ أعباءه الثقيلة إلى يد القدرة للقدرة المطلق.. مطمئن البال في سهولة وراحة"^(٦).

ومن المنطقي أنّ هذه المرتبة من الإيمان السامي تقتضي الوصول إلى التوحيد الخالص، وهذه المرتبة الإيمانية القصوى تقود بدورها إلى التسليم المطلق للخالق الواحد الأحد الصمد الذي سنّ قوانين هذا الوجود ومسك بنظامه العجيب. ومن خلال هذا التسليم الطوعي يتمّ تحقيق التوكّل الميسّر إلى الصراط المستقيم المؤدي بدوره إلى الظفر بالسعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وفي هذا السياق أشار النورسي إلى أنّ التوكّل على الله تعالى لا يعني رفض الأسباب

(١) الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، ص، ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذيل المكتوب التاسع والعشرون، ص، ٥٦٩.

(٤) المكتوبات، ص، ٥٧٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، النقطة الثالثة، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص، ٣٤٩.

وردّها كلياً، بل اعتبرها "نوعاً من الدعاء الفعلي" موضحاً أنّ "طلب المسببات إذن وترقّب النتائج لا يكون إلّا من الحق سبحانه وتعالى، وأنّ المنة والحمد والثناء لا ترجع إلّا إليه وحده"^(١).

والمتموكل على الله تعالى المانح القدير يتحرّر من الحاجة والتسوّل من الكائنات، ويشعر بالأمان والاطمئنان القلبي والقدرة على تحدي المصاعب والابتلاءات، وفي الآن نفسه يساعده هذا التوكل على الابتعاد عن الرياء والاستهزاء، وبالتالي يغرس في نفسه التواضع ويجنبه الغرور ويشفيه من عدّة أمراض تبعده عن التقوى ومحاسبة النفس الأمّارة بالسوء، وعدم اللهث وراء الشهوات والنهل منها بلا رقيب، والتحرّر من أوهام الأطماع الزائلة سواء كانت مادية أو معنوية مثل الشهرة الزائفة والمناصب من أجل توظيفها لأغراض دنيوية ضيقة تبعده عن شاطئ الأمان وبرّ السعادة الحقيقية في الدارين..

وبذلك يكون الإيمان القوي المرتكز على التوحيد الخالص والأخذ بالأسباب المشروعة مع التوكل على الحي الرقيب الذي لا يعتريه الفناء ولا تأخذه سنّة ولا نوم، هو أكبر ضمان لتحتبّ كلّ الانحرافات والمغريات الشيطانية في أيّ عمل مادي أو معنوي أو سلوكي يقوم به الإنسان.. معتمداً - بعد الإيمان - على الدعاء الذي هو أساس العبادة ومخّتها - كما جاء في الحديث النبوي - ليكون أملاً مفتوحاً في رجاء الخالق للاستعاذة بربّ الناس من شرّ العباد والوسواس أثناء خوضنا غمار الحياة المليئة بالمغريات والمخاطر وأنواع البلايا.. فالله يدعوا الإنسان إلى الأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُوكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٢)، وفي آية أخرى يأمرنا سبحانه بالدعاء الصادق الذي يقتضيه الإيمان الصادق ويتّخذة وسيلة قاطعة ووساطة بين المؤمن وربّه كشرط للاستجابة: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٣). وقد اعتبر العلامة النورسي "الدعاء" ضرب من العبودية.

ويطلب الأستاذ النورسي في شرح معنى الدعاء وأنواعه وغاياته وأوقاته التي تجعل منه عبادة من أرقى العبادات والمناجاة نحو الذنوب وإنزال البركة في أيّ عمل يقوم به المؤمن بنية

(١) المصدر السابق، ص، ٣٥٠.

(٢) الفرقان: ٧٧.

(٣) غافر: ٦٠.

خالصة، فهو في نهاية الأمر "مفتاح خزينة رحمة واسعة ومصدر قوة متينة.." (١) ليرتقي به الإنسان إلى أعلى المراتب الإنسانية ويجعل الداعي الصادق عبدًا كليًا ووكيلًا عامًا بقوله تعالى "وإياك نستعين" حتى يكون في أحسن تقويم لهذا الكون كما خلقه الله وأراده ليكون من أرقى خلقه بالإيمان والأعمال الصالحة..

- أثر الإخلاص في تحقيق العمل الإيجابي:

إن الإخلاص يحتاج إلى مجاهدة قبل العمل وأثناءه وبعده.. لذا يرشدنا العلامة النورسي إلى الحرص على احتقار كل عمل صالح نقوم به، بل يجب أن نكون خائفين من عدم قبوله، ولقد كان من دعاء السلف الصالح: "اللهم إنا نسألك العمل الصالح وحفظه.."، وعدم العجب والفخر به بل يبقى الخوف من عدم قبوله معلقًا، يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِئِهِٗ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ (٢)، قال ابن كثير في تفسيره: "أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم خوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط العطاء".

فكلما استتر العمل مما يشرع فيه الإخفاء كان أرجى في القبول وأعز في الإخلاص. والمخلص الصادق يجب إخفاء حسناته كما يجب إخفاء سيئاته لقوله عليه الصلاة والسلام: "سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله.. وذكر منهم رجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" (متفق عليه).. ولعل في دعاء الصحابي الجليل عمر بن خطاب أبلغ معنى للإخلاص الصادق: "اللهم اجعل عملي كله صالحًا واجعله لوجهك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيء".

كما أنّ من دوافع الإخلاص ووسائله: الدعاء بأن يهدينا ويعيننا على الإخلاص في أعمالنا، والمحاولة قدر المستطاع إخفاء العمل الصالح إلا إذا كان المقصد من عدم إخفائه هو لغرض القدوة وتوجيه الناس لفعل الخيرات والحث عليها.. وكذلك عدم النظر إلى أعمالنا بعين العجب والفخر، بل الخوف من عدم قبوله، حتى يزيدنا تقوى وحثًا على مزيد فعل

(١) الكلمة الثالثة والعشرون، ص، ٣٥٥.

(٢) النحل: ٩٢.

الخيرات والإخلاص في أعمالنا.

ولا شك أنّ الإخلاص هو من أعمال القلوب التي لا تظهر أمام الناس، فلا يستطيع أيّ إنسان أن يزكي نفسه بل يسعى إلى تصفية نيته لله جل وعلا، دون أن يشهد لنفسه بذلك، مع القناعة بأنّ كل أعمالنا - التي نرجو من الله قبولها - هي بتوفيقه لنا تعالى وفضله..

ويمكن القول بأنّ "الإخلاص" أولاً وقبل كلّ شيء هو حقيقة الدّين والمضمون الأساسي لدعوة كافة الرسل والأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقَّاءَ﴾^(١) بل ذهب الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٢) بأن أحسن العمل هو "أخلصه وأصوبه.. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة"^(٣).

يرى العلامة النورسي أنّ "الإخلاص في العمل" هو مرآة الإيمان الذي يعكس صدق هذا الإيمان ومدى درجته عند الله سبحانه وتعالى.

وإذا كان الإيمان - كما أسلفنا - نور وقوة يهتدي به المؤمن في عالم البلاء والابتلاء، فإنّ الإخلاص هو روح كلّ عمل إيجابي، وأنّ رضا الله لا ينال إلا بالإخلاص، ولو كان العمل قليلاً. فيكفي المؤمن نيّة الإخلاص مع الأخذ بالأسباب حتى يفوز بقبول عمله عند الله تعالى، فرضاه سبحانه ليس بكثرة التابعين ولا باطراد النجاح والتوفيق، ذلك لأنّ تكثير التابعين والتوفيق في الأعمال هو ما يتولاه الله سبحانه بفضله وكرمه، فلا يسأل ولا يطلب بل يؤتيه الله سبحانه ما يشاء"^(٤)، موضّحاً في ذلك بأنّ "رُبّ كلمة واحدة تكون سبباً في النجاة من النار وتصبح موضع رضا الله سبحانه، ورُبّ إرشاد شخص واحد يكون موضع رضا الله سبحانه بقدر إرشاد ألف من الناس. فلا ينبغي أن تأخذ الكمية كثيراً بنظر الاعتبار"^(١).

(١) البيّنة: ٥.

(٢) الملك: ٢.

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٦، ص ٢١٧.

(٤) كتاب اللغات، اللمة العشرون، ص ٢٣٠.

(١) المصدر السابق.

والمؤمن الصادق الذي يبذل قصارى جهده لفعل الخيرات ونفع الناس، لا ينتظر جزاء ولا شكورا منهم رافعا شعار الإخلاص في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (١) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا ﴿١٠﴾ فَوَقْنَهُمْ اللَّهُ شُرَكَاءَ الْيَوْمِ وَلَقَمَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾.

فالمؤمن الذي وصل إلى هذه القناعة وهذه الدرجة من الإخلاص لا ينتظر أجرا على عمله من الناس ولا شكرا ولا مديحا ولا حتى نتائج ذلك العمل بل ينضوي تحت قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٢)، لأنه يدرك تمام الإدراك "أن استحسان الناس كلامه وحسن تأثيره فيهم ونيل توجههم إليه هو مما يتولاه الله سبحانه وتعالى من إحسانه وفضله وحده، وليس داخلا ضمن وظيفته التي هي منحصرة في التبليغ فحسب. بل لا يلزمه ذلك ولا هو مكلف به أصلا" (٣). فمن أكرمه الله بهذا المقام الراقى سوف يجد لذة الإخلاص وسعادة روحية قصوى تزيد إيمانا على إيمانه واطمئنانا بأن الله رضي الله عنه وقبل عمله، فإذا حصل شيء من هذا القبيل فليعدّه إحسانا إلهيا محضا وكرما ربانيا، ويصبح بالتالي في غنى عن سؤال الناس والرضا بما قسمه الله من رزق والقناعة به.. وعندها يظفر بدرجة الإخلاص التي هي روح العمل الإيجابي وميزان درجة الإيمان، ولا يعرف ذلك إلا "بصدق الرغبة في إفادة المسلمين عامة أيّا كان مصدر الاستفادة ومن أي شخص صدر.. (٤)".

ويطالب النورسي - من يريد المزيد من الثواب الأخروي - بأن يستمسك بالإخلاص باتخاذها أساسا لعمله، ومن ثم جعل مرضاة الله هي وحدها الهدف والغاية في كل الأعمال.

والله وليّ التوفيق

(١) الإنسان: ٩-١١.

(٢) النور: ٥٤.

(٣) اللعة العشرون، ص ٢٢٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٠.